الخطاب الصوفي والأطر الاجتماعية للمعرفة بالزاوية
الزاوية البوعبدلية ببطيوة نموذجاً

محمد الكمال لرجم
طالب دكتوراه في علم الاجتماع الثقافي
جامعة وهران 2

تعتبر الزاوية واحدة من تلك الأُسس التي بُنِيت عليها مرجعية الثقافة الجزائرية، حيث كانت تحظى بالإجماع والتوافق بين معظم الطبقات والفئات الاجتماعية، حيث قمنا بالاعتماد على المنهج الكيفي النّوعي، الذي يناسب هذا النوع من المواضيع التي تعتمد على الفهم والتفسير لمختلف التّصورات والتّمثلات الفردية والجماعية لمجتمع الزاوية.

كما قمنا بالاستعانة بالمنهج التاريخي في إطار دراستنا التعاقبية التي تعطي معنى وأهمية للسياق التاريخي سواء للمجتمع ككل أو للزاوية المدروسة.

وفقد تمحور المضمون العام لهذه الدراسة حول تحليل وتأويل مختلف التعابير الشفهية والتصورات الثقافية لفئة صغيرة من المجتمع عبر ملاحظة وتفسير ما ينجم عن تمثّلات هذه الفئة داخل الزاوية.

فقد رأينا من خلال هذا البحث، أن أساس كينونة الزاوية البوعبدلية هو التّراكم والرّصيد المعرفي المدوّن الذي تزخر به مكتبتها الصغيرة، والسّيرة الحسنة لمؤسّسها وشيوخها في إطار الذاكرة الجماعية لزائريها، فالزاوية كموطن لمنظومات معرفية، هي بالضرورة إطار اجتماعي لذلك، إذ تتوقف أساساً حول طبيعة المعتقدات والطقوس المؤمن والمعمول بها، حيث لمسنا تناقلية للمعرفة من الجيل الأول إلى الثاني الذي على رأسه الشيخ الحالي، بالرّغم من انحصار هذه التناقلية الفريدة في عدد محدود من الأشخاص.

إن هذا البحث جاء كمحاولة منا لإبراز قدرة الأنثروبولوجيا كعلم ومنهج على فهم وإدراك الدّلالات والمعاني الرّمزية في حياة المجتمعات، كما

جاء ليبرز ولو بدرجة متواضعة ذلك القرب الشديد للأنثروبولوجيا من مجتمع وموضوع بحثها.

المصطلحات الرئيسية:
أنثروبولوجية المعرفة -الأُطر الاجتماعية- الزاوية - الخطاب الصوفي - تناقل المعارف–التمثلات المجتمعية.

Résumé:
Cette étude constitue l'interprétation d'un ensemble de matériaux recueillis au cours des différentes séances de travail au sein de la zaouia Al Bououaabdalia et avec ses adeptes. Ces matériaux constitue une véritable base de recherche en anthropologie culturelle et linguistique et qui nous ont permis de procéder à un questionnement sur l'impact de la mystique soufie qui traverse les pratiques et les représentations sociales et culturelles de la société au prisme zaouia.

ABSTRACT
Through this study، the expressions and denunciations of the zaouia leaders and their visitors gave us a real research material in cultural and linguistic anthropology، in which we discovered the good mastery and the heavy presence of Sufi mystical symbolism.

And according to our interrogation، we have come to see the impact of the Sufi aspect، which was considered the only pure and original mentality in the midst of this material world، and which is embodied in a special linguistic register through practices And the social and cultural representations of the zaouia society.

تميزت البحوث المجتمعية والأنثروبولوجية ببلادنا عامةً ببعدها عن واقع المجتمعات البسيطة، حيث تفادت الولوج إلى طبقاتها وفئاتها الاجتماعية العميقة ومعرفة طرق حياتها وتفكيرها ومعتقداتها، وهذا نظراً للموجة التحديثية التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال، والتي مست قطاعات مهمة ومن بينها الجامعة وصولاً إلى مواضيع البحث في حد ذاتها.

وبذلك توجهت البحوث العلمية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، إلى جهة أخرى غير تلك الجهة الموجودة بقوة والأكثر حضوراً وتأثيراً على المشهد الثقافي في المجتمع بل والصانعة له في كثير من الأحيان، فموجة التحديث هذه، وضعت تاريخ فئة معينة ومرحلة تاريخية مقصودة من

تاريخ الجزائر، حيث ارتكزت عليها وأظهرتها للعيان على أنها النموذج الذي يجب أن تكون الجزائر عليه والذي روجت له من خلال مختلف الأجهزة الإيديولوجية، الإعلامية والبيداغوجية منها، ولسوء الحظ قامت العلوم الاجتماعية بتجاهل فترات مهمة من تاريخ هذا المجتمع التي أسست لأصوله العقائدية والفكرية حيث غضت الطرف عنها وعن تفاصيلها وواقعها.

لكن مع مرور الوقت، يقوم هذا المجتمع الذي نجهله بالظهور وفرض نفسه كفاعل أساسي، بل وصانعاً للرّموز والمعاني واللغات في كثير من الأحيان وبذلك يجبر البنيات الهيكلية الفوقية للمجتمع نفسه والدولة على حد سواء، إلى الرجوع إليه والوقوف عنده في مختلف أشكاله.

هذه النزعة جعلت من علم الاجتماععلماً أجوفاً يفتقر إلى مجتمعه، بحيث يقوم بتفسير ودراسة ظواهره وفق آليات نظرية قادمة من الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط.

والآن مع بزوغ علم إجماع وأنثروبولوجيا جديدة، يحاولان العودة للواجهة بالرجوع لخطوة للوراء لتحقيق الوثبة النوعية في العلوم الاجتماعية، عبر طرح تساؤل مهم ومغاير عن التوجهات القائمة، والذي قد يبدو للبعض بأنه تجاهل وحرق لما أنجز، ولكن لابأس بالتذكير فقط أين هو المجتمع الجزائري، ذو القيم المحلية البعيدة عن الثورية المسيّسة والاشتراكية والعولمة المؤدلجة؟

ما هي ثقافته، من أين أتت وكيف تشكلت واستمرت في وجودها؟

هكذا تساؤل يقودنا للتوجه مباشرة إلى المجتمع دون وسيط أو طرف ثالث، وذلك بالاحتكاك مع أفراده إذ نقوم بالعيش معهم لفترة لفهمهم ووصف طرق تفكيرهم وتصرّفاتهم وتمثّلاتهم ولغة تعبيرهم.

إن عصرنا هذا يبعدنا عن مصدرنا وتاريخنا الثقافي، ويوجهنا بشراسة نحو عالم طغت عليه أنماط قيمية جديدة ونحن نرى وفق قناعاتنا وأخلاقياتنا أنه لا بد من الفهم الدقيق لجذور الثقافة المحلية لفهم ما يجري اليوم، وفق أي خلفية ومرجعية ثقافية يتحرك مجتمعنا.

إن الأنثروبولوجيا نشأت لخدمة هذا الغرض، فالهدف من دراساتها ليس التأريخ لأصل الإنسان بل لفهم ثقافته، وهذا ما سنحاول الحذو نحوه بتوجهنا الصريح إلى وجه من ثقافتنا المحلية المتمثل في فضاء الزوايا خطابها الصوفي وكذا زيارتها ودورها المعرفي في مجتمعنا، لأنها كانت ولا زالت تشكل جزئ كبير من هويتنا الحضارية وذاكرتنا الجماعية، نظراً لعمق وجودها في تاريخ المنطقة ودورها المهم في كثير من الأحداث والقضايا التي عرفها المجتمع الجزائري.

1-الطّرح الإشكالي

إنّ اهتمامنا بالثقافة المحليّة الجزائرية، قادنا إلى الانتباه بوجود مؤسّسة دينية فريدة من نوعها تميزت بها الجزائر، ألا وهي "الزاوية"، فهي التي توصف من قبل المؤرخين بأنها الصّانعة والمؤطرة لمقاومة الاستعمار حيث كان رجالها الصّوفيين أبطالاً ورموزاً للمقاومة الفكرية والعسكريّة على حد سواء.

و تشير بعض البحوث التاريخية وخاصة تلك التي قام بها الضباط الفرنسيون الذين عملوا بالجزائر في إطار ما يسمى بالمكاتب العربية، إلى التنويه بالدور الديني، الاجتماعي، السّياسي والعسكري الذي قامت به، ناهيك عن الدّور الرئيسي والمتمثل في التعليم والتربية وضبط المجتمع على أُسُسِه الدينية الإسلامية، ومن بين هؤلاء المؤرخين نذكر: الضابط (**لويس رين** - Louis RINN) الذي يصفها بالهيكل الديني المتمتّع بالقوة كأداة للفعل الاجتماعي « moyen d'action »، التي تمارس تأثيرها على الجماعات الحاضنة لها، فهي فضاء للقادة الدينيين للإسلام في الجزائر، كما تتميز باستقلالية عن مراكز السّلطة حتى قبل قدوم الاحتلال الفرنسي كما تحظى بالمرجعية الاجتماعية في مختلف القضايا باعتبارها النواة أو البنية التي ترتبط بها الحياة القبلية والريفية[1].

فمن خلال كتابه المعنون بـ « marabouts et khouanes »الذي يرتبط أساساً بالزوايا، أين بيّن خضوعها لسلطة "المرابط" الذي يرث الأفضلية

(1) -RINN L.، 1884، (*marabouts et khouanes*)، Alger، Adolphe Jourdan، (libraire-éditeur)، p: 04.

والمكانة الدّينية المعتبرة، التي أشار إليها بعبارة: « le prestige religieux »من شيخ أو ولي مؤثّر في المنطقة. [1]

وكتب الجنرال (Melchior Joseph-Eugène) المعروف باسم (DAUMAS)، بعد قدومه للجزائر عام 1835م، أين عمل هو الآخر في المكاتب العربية، بنواحي معسكر وتلمسان، حيث يصف الزوايا بأنها خاصةٌ بثقافة الأهالي « les indigènes » والتي تملك رصيد معرفي متميز، كما تعد مواطن للمقاومة ومصدرها [2].

هذا وتضيف المؤرخة (**إيفون تورين** - Yvonne TURIN) بخصوص الزوايا أنها منبع لمعارف المجتمع الجزائري المختلفة وأنّ " *المرابط*" الذي يتمتع بالموقع الرّيادي في الزاوية، يلعب دور المرجع الديني والقائد العسكري، المدرس والطبيب، في إشارة منها حول وظائف الزاوية المتعددة، ونفس الرّجل هو من يقود الناس في الصلاة باعتباره صاحب الثقافة والرّوح القتالية التي تدافع عن المجتمع بمختلف الوسائل [3].

و يصفها (Émile DERMENGHEM) في كتابه حول الإسلام المغاربي، أين يفرق بين نوعين من شيوخ الزوايا بحيث يصنف بين شيوخ عامة الناس الفلكلوريين، وشيوخ الخطابة أو المثقفين الجديّين، ويرى في الزوايا أنها الممثلة للفضاء الروحي والصوفي « mystique » في منطقة المغرب العربي عامةً ، وفي الجزائر قامت بسد الفراغ الناجم عن غياب المدارس الكبرى كالزيتونة، القرويين والأزهر من خلال انتشارها الواسع [4].

كما يصفها كل من (Jacques BERQUE) و(Ernest GELLNER) على أنها صورة للإسلام الشّعبي المستوحى من الإسلام الأصلي، باعتبارها

([1]) -Idem، p15.

([2]) -FAUCON N.، 1889، (*le livre d'or de l'Algérie*)، tome 1، Paris، CHALLAMEL، p: 197.

([3]) - TURIN Y.، 1971، (*affrontements culturels dans l'Algérie coloniale 1830-1880*)، Paris، MASPERO، p:11.

([4])- DERMENGHEM E.، 1954، (*le culte des saints dans l'islam maghrébin*)، Paris، GALLIMARD، p: 11.

محصِّلة لتفاعل المجتمع بكافة أعماقه الأنثروبولوجية مع الرّسالة السّماوية[1].

ومن خلال دراستنا الاستطلاعية بزاوية الشيخ أبو عبد الله البُوعبدّلي ببطيوة، لمسنا جواً من التقدير والتقديس من طرف زوار الزاوية تجاه شيخها والقائمين على سيرها.

وما لفت انتباهنا هو قدوم عائلات بعيدة عن المنطقة، قاصدة الزاوية للاستفادة من "بركة" الشيخ المؤسس، التي لها شهرة واسعة في نواحي الغرب الجزائري حسب ما أكده لنا أحد مقدمين الزاوية، كما تختلف حاجاتهم بين الزيارة، والرقية وفض الخصومات من خلال الاحتكام إلى حكمة الشيخ، بحيث تشهد الزاوية إقبالاً من مختلف الشّرائح الاجتماعية من الجنسين، مع أفضلية عددية واضحة للنساء.

وهنا نتساءل حول **طبيعة الأنواع المعرفية بهذه الزاوية، وما هي مظاهرها وغايات توظيفها، وهل الزاوية فضاء لتطور وإنتاج المعرفة أم أداة لتدويل ما سبق التفكير فيه من قبل؟**

وبما أن الزاوية مؤسسة تنشئة اجتماعية دينية، سنحاول أن نبيّن **إن كانت توظّف معارف معينة مستعملة في ذلك لغة خطاب خاصة في إطار التنظيم الاجتماعي مستقطبة بذلك فئات اجتماعية معينة،** بحكم ارتباط المجتمع الجزائري بالزوايا كما أشارت إليه مجمل البحوث والدراسات التاريخية والأنثروبولوجية لمجتمعنا، والتي قمنا بذكر البعض منها.

2-الأنثروبولوجيةاللغوية والمعرفية

بعد التحولات والتطورات التي عرفتها الأنثروبولوجيا من خلال قفزات نوعية من حيث المناهج والمواضيع، قد تجاوزت كما رأينا دراسة تلك المجتمعات الموصوفة بالتقليدية والبدائية، وصارت علماً يراهن عليه في استيعاب وفهم تلك التحولات التي يعرفها العالم المعاصر وما تبعها من ثورات حقيقية في العلوم والتقدم التكنولوجي، ناهيك عن التطور الحضري وما صاحبه من ممارسات اجتماعية جديدة.

([1]) -GELLNER E.، (*the popular and the purified*)، *Muslim society* ،*Times literary supplement* ،11/12/1981.
in: BERQUE J. 2001 ، (*histoire et Anthropologie du Maghreb*)، Opéra Minora II، Paris، Edi: BOUCHENEN ،p: 421.

هذه الممارسات بالتحديد، أجبرت الأنثروبولوجيين على ضرورة الاهتمام بها، ومن بين التحولات التي طرأت على ميادين ومواضيع البحوث الأنثروبولوجية "مسألة اللغة والمعرفة" التي كان لها رواج كبير باعتبارها امتداد لظهور الانثروبولوجيا اللسانية مع **فرديناند دوسوسير**، حيث ارتكزت على الربط بين الواقع المعاش وبين الخطاب المتداول ضمن ما يعرف بالسجلات اللغوية الخاصة بكل فئة اجتماعية معينة.

فمنذ القديم اعتبرت المعرفة سلعة كباقي السّلع، لكنها منتوج يختلف عن كل السلع الأخرى حيث أن المعرفة هي ظاهرة لا تفنى « inépuisable » عند الاستهلاك، كما أنها تتجدد وهي تراكمية « accumulative » إذ تتخذ شكل النمو والتطور، كما تقبل القسمة إلا مالا نهاية، فهي متعددة وواسعة ولا بد من التمييز بينها وبين العلم، فهي قد تصل عن طريق: الحس، التلقين، التعليم، الشعور والإلهام أو العقل، فليست اللغة المستعملة والعلوم إلاّ باباً من المعرفة « connaissance » لكل منها مزاياه واختصاصه، فالمعرفة سلم متدرّج والعلم درجة منها، فالمعرفة تمكن الإنسان من السيطرة على الواقع ومن غزو الطبيعة وكذا من إقرار حقائق يصدقها ويعمل بها [1].

وكما يقول (**ميشيل فوكو**-Michel FOUCAULT): المعرفة هي تجريد، لكنها جزئ هام وصلب من حياتنا، وهي تقف فوق عمليات السلطة وفوق الانفعالات والسياسة والمؤسسات وطالما هي توفر منطلقاً حيادياً، نستطيع من خلالها إقامة عمليات سلطة، فهي بذلك حصيلة ونتاج متعالي، وحتى إن كان هذا النتاج شفهي يمكن حفظه بمجرد السماع عنه أو الحصول عليه[2].

إن اهتمام الأنثروبولوجيا بالمعرفة جاء كرد فعل لما أسماه **(ليفي برول**– Lévy-BRUHL) بثنائية الفكر المنطقي والفكر ما قبل منطقي « prélogique »، أين حصر الأخير في المجال الديني للمجتمع وهو تحليل

(1)- بوحديبة عبد الوهاب، 1992، (لأفهم فصول عن المجتمع والدين)، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص: 198

(2) - طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، 2010، (مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع)، ترجمة: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ص: 636.

يظهر مدى التعلق بالتطورية ونزعة البثيةالإثنية في الأنثروبولوجيا، لأنه يظهر لنا وجه آخر لتصنيف معروف في صورة مجتمعات حديثة وأخرى تقليدية [1].

من خلال هذا التفريق في العقلانيات عرفت أنثروبولوجيا المعرفة تفريقاً بين لونين للمعارف الاجتماعية:

أ- المعارف المتبادلة اجتماعيا: وهي التي يعتبرها Clifford GEERTZ) (عبارة عن رموز عمومية ومعرفة روحية خاصة لظواهر معينة، وهو لون معرفي يتوافق فيه النفسانيون والأنثروبولوجيون (بصفة الفرد والجماعة).

ب - الانفعالات وردود الأفعال الرمزية: مع **ليفي ستروس** بصفة انعكاس « réflexion » حيث يرتكز هذا اللون على معاني الرموز الثقافية ودلالاتها [2].

إن الأنثروبولوجيين بحكم طبيعة وميدان بحثهم، لا يمكنهم تجاهل عدم طرح أسئلة معرفية لكن بمجرد طرحهم لها يستفيدون الكثير عن طريق النوعية والدقة في التأويل.

فالدراسة الأنثروبولوجية للمعرفية هي إبعاد للجانب الفلسفي والتاريخي للمعرفة، فهي تتوقف عند المبادئ والأنظمة والآداب الاجتماعية « les disciplines »[3].

وعادةً ما يتمحور هذا النوع من الدراسات (المعرفية) لدى الأنثروبولوجيين حول المسائل الأكثر أهميةً في حياة الإنسان، والتي يقوم من خلالها بتوظيف معارف متعددة، وتتمظهر في الكثير من الأحيان في سلوكيات واعية وغير واعية، تتجلى في تصورات ورموز في سجل لغوي خاص في ما بين الأفراد وهو المعبّر عنه بعبارة:

« registre linguistique interpersonnel » [4].

---

(1) - GUERID D.، 2012، op.cit. ،p: 09.

(2) - BLOCH M.، 2013، (*l'Anthropologie et le défi cognitif*)، Paris، Odile Jacob، p: 12.

(3) - Idem، p: 09.

(4) - BLOCH M.، 2013،op.cit. p: 10.

إن مواضيع كل من علم إجتماع وأنثروبولوجية المعرفة هي "**المحددات الاجتماعية والثقافية لها** "بما فيها المعتقدات والإيديولوجيات المتبناة، وقد تأسس هذا الفرع من العلوم الاجتماعية على يد **دوركايم** من خلال تركيزه على العامل المعرفي في كتابه الصادر عام 1912 م، بعنوان « les Formes élémentaires de la vie religieuse » (الأشكال الأولية للحياة الدينية)، بحيث يطرح فيه صفة العلمنة الاجتماعية «le scientisme social » للأشكال القبلية، وحتى **إيمانويل كانط** رأى في هذه الأشكال توفر الإحساس ومظاهر الإدراك لما هو معرفي [1].

وعليه، يرى (**كارل بوبر**– Karl POPPER) أن المعرفة العلمية تتقدم بواسطة تقدم "جوهري" وبواسطة منطق "داخلي"، إذ يعطي انطباع بانه يتحدث عن الاكتشاف والاختراع، في حين وضع الماركسيون الجدد مثل (**يورغن هابرماس**- Jürgen HABERMAS) علاقة جدلية بين السبب والمسبب " أي العلّة والمعلول" في ضوء اهتمامه بالمعرفة في إطار المصلحة وهو ما تجلى في كتاب:« connaissance et intérêt» عام 1968م[2].

3- الزّوايا وظروف نشأتها بالجزائر

ظهرت الزوايا بأنظمتها وطقوسها في القرن الثالث هجري، وكان يطلق على مشرفها لقب "شيخ الشيوخ" وأطلق هذا اللقب لأول مرة على **"إسماعيل بن أبي سعد"** (541 هـ) ثم أطلق على القائمين عليها اسم شيخ الخانقة سنة (659 هـ) وانتشرت بكثرة في عهد الأيُوبيّين والمماليك في الشّام، بحسب ما جاء به المؤرخ (**عبد الرّحمن الجيلالي**) في تاريخ الجزائر العام.

أمّا تفرُّع الطرق الصوفية يعود للقرن الثامن هجري، إذ فاق عددها 80 طريقة، وفي الجزائر تفرّعت من أربعة طرق إلى 23 طريقة مع مجيء العُثمانيين[3].

([1])- خليل أحمد خليل، 1984، (المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع)، بيروت، دار الحداثة، الطبعة الأولى، ص: 200.

([2]) - نفس المرجع، ص: 203.

([3]) - مؤيد صلاح العقبي، مرجع سابق، ص: 86.

ويرتبط تاريخ الزوايا في الجزائر بتاريخ رجالها من المتصوفة، فمعظم التّيارات الصوفية تمتد جذورها إلى مسلمي الأندلس عن طريق المغرب الأقصى، فازدهرت الزوايا مع انحطاط الحضارة الإسلامية بسقوط الخلافة العبّاسية على يد المغُول في القرن 13 م، وأخذت خصوصيّات مغاربيّة، بتأقلمها مع واقع المجتمع المحلي ثلري بتنوعه الثّقافي، وهذا ما يشكل استقلالها عن كل نفوذ أو تبعيّة للمشرق العربي[1].

ويُرجِع الأستاذ **عبد القادر بوعرفة الهلالي** ظهور الزوايا والتصوف إلى ما أسماه بالحواضر العلمية في عهد "نوميديا" إذ يرجع أن العقل الفلسفي الجزائري وقع في دائرة التّوفيق بين النص المسيحي والمُدُن الفلسفية اليونانية، من خلال أعمال "**القديس أوغسطين**" في كتاب (مدينة الله) و(رسالة السعادة)، ثم ظهر في العصر الوسيط "علم الكلام" نتيجة دخول الإباضين وتأسيس الدولة الرّستمية (بتيهرت)، فكان للمناظرة الكلامية تأثير في خلق مجال للتنظير الإيديولوجي والمذهبي، حينها طغت مسائل كالحرية، التوحيد، التسيير والتخيير، التشبيه والتجسيم، ثم انتقلت الأعمال لتركز على مسألة التوحيد، ثم في القرن 15 م، غلب في المؤلفات العلمية، مجال التصوف والزهد كرد فعل تجاه:

1- التركيز على مسائل الفقه وفُروعِه بصورة غير موضوعية.

2- طغيان الصدام بين الفروع والعوارض مما جعل الكتابات مزيج من التحليل والتركيب.

3- تفشي الأراجيز الشعرية على الكتابات العلمية والمنطق وكذا حضور المِخيال الأسطوري للتصوف[2].

ويذكر الكثير من الباحثين أن أصل الزاوية كان عبارة عن رباط، إذ تحول وتطور مع مرور الزمن، فالرّباطات هي الثكنات التي تحمي الثغور الإسلامية من الحملات الصليبية وكانت عبارة عن ملتقى للرجال والنساء الذين تركوا ملّذات الدنيا وكرّسوا حياتهم للعبادة والتّكر في الرباط الذي لم يكونوا يغادروه إلا للجهاد، وقد عرفت سواحل المغرب العربي هذه الرّباطات في القرن الخامس هجري، ومن أهمِّها: رباط بونة (1048م)

([1])- بودواية بلحيا، مرجع سابق، ص:20.

([2]) - عبد القادر بوعرفة الهلالي، 2004، (أعلام الفكر والتصوف بالجزائر)، الجزء1، وهران، دار الغرب، ص: 07

أين يوجد ضريح الشيخ **أبو مروان البوني**، ورباط شرشال، وكان الدُّعاة ينطلقون منها لنشر الإسلام في إفريقيا فأسلمت مجتمعات الغرب الإفريقي بفضل التيجانيين في كل من دول: (السنغال، مالي، بوركينافاسو، الساحل العاج، غامبيا)، وفي الشرق انتشرت السنوسيّة في (السودان، تشاد، تنزانيا، الصومال) [1].

وكان الأتباع يتلقّون في الرّباط تربية روحية تهديهم إلى مكارم الأخلاق، وصارت الرباطات أماكن يتسابق الناس إليها لنيل مكانة بها، ومنذ القرن الرابع هجري تحولت مهامها من العبادة والجهاد إلى التعليم والتدريس حيث أُلِّفت فيها نفائس الكتب في مختلف العلوم، وبعد انقضاء الجهاد مع قدوم الأتراك، تحول المتصوفون إلى بناء الزوايا لإنشاء مراكز ودور عبادة شبيهة بالرباط، وكان الهدف الأساسي من بنائها هو تعليم القرآن الكريم وباقي العلوم الدينية، ولا زالت إلى يومنا هذا تسمية الرباط مرتبطة بها، إذ يطلق على مشايخها بالمرابط.

وشكلت الزوايا في المنطقة المغاربية ما يُعرف **"بالموقد المغناطيسي"** « foyer magnétique » الوحيد في المجتمع عن طريق خلق قُطب للتأثير على الجماعات والأهالي[2].

فالزوايا فتحت المجال للانتقال من "التّصوف" إلى "الطُرقية"، فمع انتشار الإسلام في بلدان غير عربية شكلت كتابات كبار المتصوفة أمثال: الغزالي، أحمد الزروق، ابن عطاء الله السكندري وابن عربي، شكلت عقيدة وفلسفة فقهية جديدة تقترب من أحوال الناس في هذه البلدان الأعجمية [3].

وفي حديث (**محمد أركون**) عن الإسلام المغاربي، فإنه يشير إلى أن الزوايا ميراثٌ إسلامي غني لا ينضب من الرموز والدلالات والعلامات،

([1])- صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص: 217.

([2]) - BERQUE A.، 1986، (*écrits sur l'Algérie*)، Paris، Edisud، p: 25.

([3]) - BOUBRIK R.، 1999، (*Saints et société en Islam*)، Paris، CNRS Edi.، p: 49.

التي توظيفها من قبل مجموعات متنوعة في فترات مختلفة من تاريخ الجزائر [1].

يكشف النقيب (Edward De NEVEU) عام 1845م، أن الزاوية مؤسسة متميزة ليس لها مثيل في العالم الغربي، فهي مصلّى ويأتي العديد من الناس والعائلات لزيارتها، كما أنها مدرسة للعلوم الدينية، الحساب، التاريخ والجغرافيا وحتى السّحر، وتعلّم الكتابة للصّبيان، وتُناقَشُ فيها أمور تتعلق بأحوال الناس والمدن[2].

وكان لكل زاوية نظامها الخاص، يحرص الشيخ على تطبيقه بصرامة، لوضع حد للفوضى أو الاختلالات داخلها وليس للزوايا مورد مالي سوى الأوقاف والعقارات والأحباس من الأراضي التي بها أشجار من الزيتون والنخيل وكذا الهبات وتبرعات المحسنين، وبلغ عدد الزوايا عام 1830م حوالي 500، إلا أن بعضها دُمِّرَ من طرف القوات الفرنسية نظراً لمواقف شيوخها الدّاعمة للثورات، حيث تحوّلت إلى ملاجئ ومراكز لعلاج وإطعام المجاهدين المقاومين[3].

ويذكر **حمدان خوجة** أن شيوخ الزوايا والطرق الصوفية، أمروا جميع المواطنين الجزائريين أيام الغزو الفرنسي بالتعبئة العامة والوقوف صف واحد للدفاع عن الجزائر [4].

وحتى العسكريين الفرنسيين ذكروا هذه المواقف، مثل (De NEVEU) الذي تحدث عن دور الزوايا في قسنطينة التي أبدت مقاومة عسكرية ودينية شرسة عام 1845م.

وتميّزت الزّوايا بالسرّية التّامة التي تحيط بها وبما يجري داخلها، حيث لم يستطع الاستعمار اختراق تنظيمها أو الاطلاع على أعمال شيوخها، وهذا ما جعل الضباط الفرنسيين يراقبون تحركات واتصالات شيوخها والمنتسبين لها خاصةً في المناسبات والأعياد، وفي هذا الصدد يقول

- مصطفى راجعي، 2014، (التديّن وجودة الحكامة في الجزائر)، دار حامد، عمّان، الأردن، ص: 72.[1]

(2) - De NEVEU E.، 184،6 (*les khouans: ordre religieux chez les musulmans d'Algérie*)، Paris ،،GUYOT، 2ème Edition، p: 14.

(3) - صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص: 207.

(4) - نفس المرجع، ص: 50.

المؤرخ (Marcel EMRE): **" بالرّغم من أن الزوايا هي ذات صبغة دينية، إلا أنها كانت تؤدي دور اقتصادي واجتماعي، وكانت بمثابة أحزاب سياسية ذات نظام غامض وشديد السّرية، كما قامت بحملات دعائية محكمة ضد الفرنسيين بواسطة اتصالاتها الخفية، فمعظم الثّورات والهبّات الشّعبية للأهالي نُفِّذت ونُظِّمَت بوحي منها"** [1].

ومع هذا، فإنها تميزت في الأحوال العادية بنوع من الهدوء والسلم، وهذا يعكس الجانب المعنوي لأصحابها هو الذي عبر عنه الباحث **بوبريك رحّال** بمصطلح « le code moral »، عبر تركيزهم على الجانب الرّوحي والنفسي لمنتسبين إليها والذين عادةً ما يُوصفون (برجال الكتاب)، أي المتخلّقين بأخلاق القرآن[2].

فالزوايا تقوم بتلقين "قيم المواطنة" للرعيّة، وهذا ما بينه الرجل الإصلاحي الشيخ **عبد الحميد بن باديس** عندما اعترف بفضلهم في الدفاع عن ثوابت الوطن مع سحبه لانتقاداته لهم في أواخر حياته[3].

فقد لعبت دور المنسّق بين الثقافات المحلية وبين الدين الإسلامي، كما شكلتتجسيداً واضحاً للحوار مع الديانات الأخرى، فكثيراً ما تربط شيوخها علاقات صداقة مع شخصيات غير مسلمة، فتبنّت الزوايا هذا النموذج من الإسلام عبر التركيز على ما يحمله من روحانية « spiritualité » بتجاوز العوائق الدوغمائية« dogmatiques » في أشكال التديّن والتعصّب [4].

إذ يوضح (Louis RINN) أن أفراد الزوايا، لم يكونوا أشخاص "قاسيين" وكان التّعصُّب « fanatisme »نادراً لدى الشّيوخ والمرابطين [5].

ويرى الباحث **موساوي عبد الرحمن**،أن الزاوية تمثل تموقعاً بعيداً عن الاختلالات والاضطرابات لتشكل زاويةٌ وركنٌ لرؤية العالم من خلالها [1].

([1]) - نفس المرجع، ص: 53.

([2]) - BOUBRIK R.، op.cit. p: 36.

([3]) - GEOFFROY E.، 2009، (*l'Islam sera spirituel ou ne sera plus*) ،Paris، Edi. Du Seuil، p: 196.

([4]) - idem، p: 203.

([5]) - RINN L. ،1884، op.cit. ،p: 18.

لكن يوضح (Émile DERMENGHEM) في كتابه حول الإسلام المغاربي، أين يفرق بين نوعين من شيوخ الزوايا بحيث يصنف بين شيوخ عامة الناس الفلكلوريين، وشيوخ الخطابة أو المثقفين الجديين، ويرى في الزوايا أنها الفضاء الروحي والصوفي « mystique »في منطقة المغرب العربي عامةً ، وفي الجزائر قامت بسد الفراغ الناجم عن غياب المدارس الكبرى كالزيتونة، القرويين والأزهر من خلال انتشارها الواسع[2].

4-تقديم الزاوية المدروسة

تقع الزاوية البُوعبدليّة في شمال شرق مدينة بطيوة، تبعُد عن الموقع الأثري الرّوماني « Portus Magnus » بحوالي 200 متر، فكانت في بادئ الأمر مسجد هو الأقدم في المنطقة (أقدم من المسجد العثماني)، ومع قدوم الشيخ **أبو عبد الله البُوعبدلي** عام 1903م إلى بطيوة، توسّع المسجد ليضُمَ معهد لتدريس القرآن الكريم والتّاريخ وعلوم النّحو (حيث كانت تُدرَّس ألفية بن مالك)، بإيعاز من شيخ المسجد **الشيخ المشرقي** المتوفى في نفس السنة.

تتربّع الزاوية حالياً على مساحة 3500متر مربع، تضم مسجداً للصلاة اليومية (ليس به منبر)، تعتليه صومعة جميلة مربّعة الجوانب على الطّراز الأندلسي، بُنيت من طرف أحد المقاولين من وهران، يبلغ ارتفاعها حوالي 20 متر [3]، وفي داخل المسجد نجد في الخلف (أي عكس إتجاه القبلة) حجرة لأضرحة عائلة البُوعبدلي.

كما بها ساحة واسعة تقابلنا عند المدخل الرئيسي لدخول سيارات الزائرين، وعلى اليمين نجد بيت للوضوء مخصّص للرجال في حين بيت الوضوء للنساء نجده في جانب المسجد (أي بعيد عن بيت وضوء الرجال) لتجنب الاختلاط ودخول الرّجال والنساء من جهة واحدة، وعلى يسار

([1])- غرس الله عبد الحفيظ، (الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية)، مجلة المواقف، عدد1، 2007، معسكر، عن:

، URASC، Oran، (structure des champs religieux en Algérie)، 1987،MOUSSAOUI A. p: 05.

([2]) - DERMENGHEM E.، 1954، (*le culte des saints dans l'islam maghrébin*)، Paris، GALLIMARD، p: 11.

([3])- تُشكّلُ صومعة الزاوية أعلى قمة معمارية بالمدينة نظراً لوقوع الزاوية في منطقة مرتفعة حيث تظهر عاليةً من الطريق الوطني رقم 11

الساحة نجد غرفة خاصة للأمانات ووضع النّبرعات، ويقع خلفها أهم ما في الزاوية، وهي المكتبة التي لها شُهرة واسعة، إذ تصنّف من بين أغنى مكتبات الجزائر لما تحتويه من رسائل ومخطوطات قيّمة ونفيسة، وفي وسط المكتبة يوجد مكتب الشّيخ الذي يستقبل فيه زائريه، ويقابل المكتبة غرفة مخصّصة لنائب الشّيخ، وبجواره معهد هو قيد الإنشاء مكوّن من ثلاث غرف بمساهمة البلدية وبعض المقاولين، بهدف تكوين معهد لتدريس "علم الفرائض"، كما يوجد جنوب الزاوية حديقة صغيرة يُسمّيها القيّمون "*بالبُحَيْرَة*" بها بعض صناديق لتربية النّحل.

وتُصَنّف الزاوية البُوعبدليّة من بين أفقر الزّوايا بالجزائر، فهي وقف خاص من حيث الملكية العقارية ولا تملك أيّة عقّارات أو أوقاف تُموّلها ماديّاً، فهي تعتمد فقط على تبرُّعات الزُوّار وبعض المقاولين بالمنطقة، وتقع الزاوية في وسط حي عائلي تسكُنه عائلة البُوعبدلّي العريقة.

وتناوب على مشيختها، أولاً الشيخ المؤسّس **أبو عبد الله البُوعبدلّي** من 1927م إلى سنة 1952م ثم خلفه ابنه الثّالث **الشيخ عبد البر** من 1952م إلى غاية وفاته عام 1979م، ثم خلفه أخوه الثاني **الشيخ المهدي** من 1979م إلى غاية 1992م ثم خلفه الأخ الأصغر **الشيخ عياض** منذ 1992م إلى يومنا هذا.

تمثل الزاوية فضاءً اجتماعياً يتم من خلاله ربط وتعزيز لأواصر العلاقات الاجتماعية باعتبارها مكاناً للالتقاء والتّعارف، فمن خلال التصميم المعماري للزاوية، الذي يضم ساحة واسعة محاطة بكراسي على طول محيطها، فقد لاحظنا عبر تواجدنا بها إقامة علاقات صداقة وتعارف بين الزائرين قيما بينهم من خلال رواية كل واحد عن تجربته الشخصية مع هذه الزاوية أو بسرد قصّة عن أحد زائريها كما تردّد على مسامعنا أكثر من مرّة.

فتبادل أطراف الحديث بين الزّوار يقوم بتنشيط عملية الاتصال بين الأفراد في إطار تعزيز الروابط الاجتماعية فقد لاحظنا قدوم عدد كبير من النساء بصحبة أطفالهن في شكل جماعات يجلسون في ساحة الزاوية للحديث.

فالزاوية البُوعبدليّة كانت مركزاً لرعاية الأطفال اليتامى والنساء المطلّقات والأرامل، إذ يروي لنا أحد الزّوار (بوزناد: 55 سنة) أنّ المشايخ كانوا يتكفّلون بما تمتلكه الزاوية بالأطفال إذ ترعاهم وتقوم بتدريسهم، أمّا النساء الأرامل والمطلّقات، فكان شيوخها يتكفّلون بتزويجهن، وكان الرجال المعنيّين بالزواج بهن يبدون موافقهم بدون تردّد نظراً لمكانة الشيخ المرموقة عندهم وطمعاً في نيل رضاه وبركته.

هذا ويضيف (نجيب: 66 سنة) أنّ الزاوية احتضنت العائلات المتضرّرة من زلزال الأصنام الأول عام 1954م من طرف الشيخ عبد البر، كما أن البعض منها فضّل البقاء ببطيوة بجوار الزاوية التي يعرفونها جيّداً لأن أصول عائلة البُوعبدلّي تعود إلى مدينة الشلف كما ذكرنا سابقاً.

وهذا ربّما ما يفسّر وقوع الزاوية في حي عائلي من أبناء عم البُوعبدلّي وآخرين من أقاربهم إلى جانب عدد من المهاجرين القادمون من المغرب الأقصى لمعرفتهم بالشيخ أبو عبد الله لمّا كان يدرس عندهم.

أمّا حالياً، فقد أضحت الزاوية غير قادرة على استيعاب عدد كبير من المحتاجين، إذ يقتصر دورها في الكثير من الأحيان على تقديم مساعدات بسيطة نظراً للوضع المالي الذي يصّنفها من بين أفقر الزوايا بالجزائر.

كانت ولا زالت تشكل الزاوية البُوعبدليّة صرحاً ثقافياً فريد من نوعه، وذلك لما تكتسيه من مكانة خاصة لدى الزّوار وأهل المنطقة، بالإضافة إلى أهل الاختصاص من أساتذة وجامعيين عرفوا مشايخها وتعاملوا معهم.

فالدّور الثقافي، يكمن أساساً في تشكيل "الوجه الأصلي الحقيقي" للمجتمع الجزائري، على حد تعبير الكاتب الفرنسي« Émile DERMENGHEM » في كتابه: « le culte des saints dans l'Islam Maghrébin » الذي يُعرَفُ عنه تعلّقه بالزوايا كما رأينا في المحاور السابقة، وعليه فإنها تشكل ملجأ ثقافي، أي تقوم بإرجاع الفرد الزائر إلى جذوره الأنثروبولوجية والتي يُحس من خلالها بوجوده.

هذا وتمارس الزاوية عدّة نشاطات ثقافية لها علاقة أساساً بالدين الإسلامي، وخاصةً في إحياء المناسبات الدينية (كالأعياد، المولد النبوي، ليلة القدر) زيادةً غلى إقامة ما يُعرف "بالختم" وهو احتفال ديني يُقام

يومي الرّابع والخامس من شهر نوفمبر، وهو تاريخ وفاة الشيخ المؤسس للزاوية إذ يقوم الناس بالتوافد إلى الزاوية لاستقبال جماعات "*الطلبة*" وشيوخ مختلف الزوايا في الجزائر، إلى درجة قول المقدم سي أحمد عن هذا الختم "...*ما تلقاش وين تحط رجلك... الناس تجي من كل فج عميق...*"، ومعظم من يأتون كانوا على علاقة طيبة مع مختلف الشيوخ الذين تعاقبوا على الزاوية، فيبيتون بالزاوية ليومين على نفقة سي عياض "دار الشيخ" وبعض المساهمين من عامة الناس.

ويقوم الطلبة بقراءة سورة يس وسورة الإخلاص 11 مرّة على روح شيوخ الزاوية، ومثلما صرّح لنا أحد المبحوثين ممّن يحرصون على حضور "الختم" (عبد الرحمن: 37 سنة، مدرس قرآن) أنه يقرأ السورتين المذكورتين ثم ينوي أجر القراءة في ميزان ثواب الشيخ، ثم يصلّي ركعتين بمسجد الزاوية ويدعي الله بالتوسّل إلى الله بجاه النبي وجاه الشيخ الصالح أن يتقبل دعاءه ويقضي حوائجه.

تماماً مثلما كانت الزاوية في القديم، بقيت مؤسسة ثقافية تُكرّس لدوام الممارسات الثقافية التي إعتاد المجتمع على القيام بها، واحتفاظها بالقيم المحلية وتناقلها بين الأفراد من خلال التباين الواضح في سن الأفراد الذين يزورونها.

5- جانب من مقابلة الشيخ

اشتمل حوارنا مع الشيخ عياض على ثلاث مراحل، وهذا لانشغالاته وكثرة زائريه بالإضافة إلى إصابته بوعكة صحية حتّمت عليه الغياب لفترة مما دفعه لجلب إمام ينوب عنه من وهران يدعى "**الشيخ رحيلي**"[1]

فعند دخولنا لأوّل مرّة إلى مكتب الشيخ، انتابنا نوع من الدّهشة لكركبة المكان وانتشار الجرائد والأوراق، فوجدنا صوراً لشخصيات سياسية لها علاقة بأحد شيوخ الزاوية مثل صورة الرئيس المصري جمال عبد

([1])- الشيخ رحيلي(نائب الشيخ)، إمام بأحد مساجد وهران، سبق وأن التقينا به أكثر من مرّة، وما لفت انتباهنا هو حمله لكمية كبيرة من الحلوى
والسّكاكر، إذ يوزعها على كل شخص يصادفه، فمرة أعطانا الحلوى لما رأيناه بالزاوية، وبمحض الصدفة إلتقينا مرّة في حافلة نقل من
بطيوة إلى وهران، فجلسنا بجانبه حتى رأيناه يفتش في أمتعته على كيس الحلوى فقام بتوزيعها كلّها على ركاب تلك الحافلة.

الناصر والمفكر الجزائري مالك بن نبي برفقة الشيخ المهدي، بالإضافة إلى تكدّس أعداد كبيرة من الجرائد باللغتين العربية والفرنسية، وكان على مكتبه علبة لحبر "*الدوايا*" [1] وقلم من القصب، وكانت رائحة العُود تملئ المكان، كنّا نجده متصفّحاً لجريدة ما في كل مرة.

وبعد جلوسنا أمامه، تساءل عن سبب وجودنا، وعندما تبيّن له أن الغرض من زيارتنا هو إعداد بحث علمي في إطار تحضير لمذكرة، سألنا عن موضوع البحث، بعدها أخذ بالحديث عن ماضي الزاوية ودورها بالمنطقة وأظهر من خلاله فصاحة لغوية واضحة، وإلمام بما يحدث في العالم الإسلامي المعاصر.

وبالحديث عن صُلب موضوعنا "المعرفة المجتمعية"، أجابنا بسرعة أن جوهر المعرفة هو الجانب الديني منها، الذي يشكل حسب **سي عياض** الحركية التي تضبط المجتمع وفق قيم روحية وأخلاقية.

هذا وقد تحدّث الشيخ عن واقع الزوايا في عالمنا اليوم، فقال: "... صارت الناس تهرب وتحتمي بالزاوية من الحياة اليومية المليئة بالمشاكل..." أي لتستريح ولو لفترة من همومها وضغوطات الحياة عليها.

في ردّه لسؤالنا حول سبب استقطاب الزاوية لعدد معتبر من الناس، قال أن السّبب في ذلك هو التصوّف فهو حسبه مرادف للإخلاص في كل شيء، من خلال العطاء بدون مقابل، كما أبدى ثقته في مدى فاعلية الزوايا في المجتمع الجزائري، وأكد أن الزاوية صارت ملجأ لنسيان مشاكل العصر، حيث توفّر للزائرين الرّاحة النفسية التي يفتقدونها في الأماكن الأخرى.

ويضيف سي عياض أن الإخلاص هو ما ينقصنا اليوم، فالزاوية تقوم بتجسيده لتبني روابط الثقة بينها وبين زوّارها الذين هم سبب وجودهم بها.

عند حديثنا عن المعرفة وعالم الزوايا، فإنه لمن المحتوم علينا الكلام عن التصوف والمعرفة الصوفية، حيث لم نعطي لمفهوم التصوف أهمية كبيرة سابقاً لأنه مفهوم مرن ولم يفصل فيه بشكل نهائي، فقد تعدّدت الآراء حوله

([1])الدوايا، هي حبر تقليدي مصنوع بمزيج من الصوف المحترقة والماء مع القليل من القطران مما يعطيها رائحة قوية

والاجتهادات في صياغته، فالمعرفة الصوفية عامةً تخضع لمبدأين هما: الفيض الإلهي وأسرار الحروف.

وهذا نسخٌ عن لما قاله كل من أفلاطون وأفلوطين وفيثاغورس، فغاية هذا النوع من المعرفة، هو السعي وراء المعرفة الكشفية، عن طريق التحلّي بأخلاق تزكية النفس وبالابتعاد عن المعاصي والشهوات [1].

وهي تمر عبر (التخلّي، التحلّي والتّجلي) كيف ذلك ؟

التخلّي هو ترك الشهوات والملّذات والتحلّي هو التخلق بالفضائل أما التّجلي فهو التّطلع إلى الفيض الربّاني، لذلك يشاع في أوساط المتصوفة بقولهم عن المعرفة الصوفية أنها رفضٌ ثم نفضٌ ففيضٌ [2]و كثيراً ما انتقد هذا النوع من المعرفة لاشتماله على مصطلحات وألفاظ خاصة وصعبة الفهم، وفي رد على هذا الانتقاد يقول أبو العباس المرسي: "**ما فعلنا ذلك إلاّ لغيرتنا عليه، لعزّته علينا كي لا يشربها غير طائفتنا** "، ويرد كذلك نظماً:

إذا أهل العبارة ساءلونا *** أجبناهم بأعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضاً *** تقصر عنه ترجمة العبارة
ونشهدها تشهرنا مسرور *** له في كل جارحة إشارة
ترى الأقوال في الأحوال أسرى *** كأسر العارفين ذوي الخسارة

وهي أبيات تفيد بخوف المتصوفة على دخول أيّاً كان في تفسير أعمالهم وأقوالهم لتكون مخصوصة بهم فقط [3].

فالأمر لا يختلف كثيراً في الزاوية البوعبدلية، فرجال هذه الزاوية يتّسمون بابتعادهم عن التصوف الفلسفي الذي يرتكز على الغيبيات أو "المُكاشفات"فبمجرد الحديث مع أحد تلامذة الشيخ أبو عبد الله نلمس تلك النزعة الممزوجة بين روحانية التصوف وعقلانية الشريعة، ففي هذا الصّدد نال الشيخ أبو عبد الله إجماع المشايخ المتصوفة وكذا السلفية

([1]) - نايف معروف، (الإنسان والعقل)، سبيل الرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، ص: 44.

([2]) - نفس المرجع، ص: 44 ذكر في: غلاّب، (المعرفة عند مفكري المسلمين)، ص: 325، عن كتاب ابن تيمية، (المعجزة وكرامة الأولياء).

([3]) - نايف معروف، (الإنسان والعقل)، مرجع سابق، ص: 46، ذكر في: الحفني، (معجم المصطلحات الصوفية)، المقدمة، ص: 16.

الإصلاحية، حيث كان يحظى الشيخ بتقدير الطرفين، فالشيخ أبو عبد الله لهكن طرقياً خاملاً ولا سلفيّاً صارماً،بل كان مثالاً للوسطية وظهر ذلك يوم جنازته، أين حضرت الطائفتين معاً، ونادراً ما نجد شخصية تتمتع بتقديرهما معاً [1]، ولم يحد أتباعه من أولاده عن هذا النوع من التصوف، فالشيخ عبد البر لازم التعليم إلى غاية وفاته، والشيخ لمهدي كان بارعاً في التأريخ أكثر من كونه شيخ صوفي، أمّا الشيخ عياض فمعروف عنه ميله الشديد نحو التصوف العقلاني [2].

فبمجرد حديثنا مع الشيخ عياض حول الأمور الغيبية المتعلقة بعالم التصوف والغيب، ردّ علينا بحزم بأنه فيه وجود لشريعة واحدة أنزلها الله ووجّهها للإنسان دون سواه من المخلوقات، وعليه قام الشيخ بإعطائنا نسخة عن قصيدة شعرية لوالده الشيخ أبو عبد الله ينتقد فيها الأفعال والطقوس الغريبة والتي لا تطمئن لها الأنفس، وهي قصيدة من 52 بيت كتبت عام 1918 م، وفيها انتقاد لشخصية أسطورية تعرف بصاحب جبل الدّخان، وهذه بعضٌ من أبياتها:

يا طالباً ضبط أسمائي وأدعيتي	مستوضحا قَسَمًا فيها بعبران
يبغي بذاك أن تسعى لخدمته	قسراً أعاظم من جن وروحاني
ومن له جبل الدّخان يخدمه	وراكب الفيل مُعتمِمًا بثعبان
أشياء مفزعة عند تـصوّرها	مجهولة الكون لم تثبت ببرهان
أتعبت نفسك فيما سوف نكرهه	غداة يُجزى ذوو الذكر بميزان

فالقصيدة بخط الشيخ أبو عبد الله ومكتوبة بالعربية القديمة المتداولة في الكتاتيب القرآنية ويتضح من خلالها المستوى اللغوي للكاتب، فقد وجدنا صعوبة بالغة في قراءتها.

وعبر هذه القصيدة نستخلص النزعة الميّالة للتصوف العقلاني المعتدل، وبهذا نفسّر غياب الطقوس الفلكلورية في هذه الزاوية، كعزف المزامير، رقصات المُجادبة ومداعبة الحيوانات... وغيرها من الطقوس الموجودة ببعض الزوايا.

([1])-سيد أحمد البوعبدلي، (الصّالح المصلح الصوفي أبو عبد الله بن عبد القادر البوعبدلي)، مقال مخطوط، فيفري 2002، ص: 11

([2]) . - مقابلة مع الشيخ سيد أحمد البوعبدلي، بتاريخ: 2014/08/25، في منزله ببطيوة

فالزاوية البوعبدلية حريصة على تملّك علاقات مميّزة مع الزوايا التي تقاسمها نفس النّهج الصوفي مثل زاوية الهامل ببوسعادة، وزاوية طولقة ببسكرة، وزاوية سيدي الخطاب بغليزان، وفي نفس الوقت تملك علاقات طيّبة مع جمعية العلماء المسلمين والمجلس الإسلامي الأعلى.

أ- الأوراد والأحزاب

في هذا المقام يجب ذكر الأوراد والأحزاب الخاصة بالطريقة الشاذلية (القديمة منها)، وهي الأورادالتي ألّفها الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

فبالنسبة للأوراد فمعروف عن الشاذلية قراءة آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة.

أمّا الأحزاب فهي أذكار مطوّلة ولدى الشاذلية عدّة أحزاب خاصة بهم من أهمها:

1-حزب الفتح هو دعاء يتغنّى فيه بنور الله وعرشه ورسوله، وسر ذاته.
2- حزب البحر هو دعاء فيه ذكر لعظمة الله في خلقه.
3-حزب النّص: هو دعاء بذكر قوة وجبروت الله.
4- حزب البرّ: هو دعاء لسؤال التوبة والغفران من الله [1].

وفي الزاوية البوعبدلية لا تُقرأ هذه الأحزاب، بل فيه ورد خاص بالزاوية وهو من تأليف الشيخ المؤسّس أبو عبد الله، وهو متداول في الزاوية منذ مدّة طويلة، معتمد في الزاوية ببطيوة وفي الزاوية البوعبدلية بوهران (المدينة الجديدة)، فيُقرأ فرداً وجماعةً مع بعض الاختلاف.

ويُقرأ الورد كل يوم جمعة بعد صلاة العصر بمسجد الزاوية، وهو كالتالي:

أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

"وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً، وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله وهو أعظم أجراً، واستغفروا الله، إنّ الله غفورٌ رحيم".

- ثم يقول: أستغفر الله (99 مرّة)

([1]) - الحسيني حسيني معدّى، (الموسوعة الصوفية)، مرجع سابق، ص: 628

- ثم يقول: "إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبي، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما (تُقرأ مرّة واحدة للفرد، وفي حالة الجماعة تُقرأ 80 مرّة)

- ثم يقول: لا إله إلاّ الله (99 مرّة)

- ثم التلفظ بالجلالة: الله (99 مرّة)، ففي الثلاثة الأولى تُقرأ بشكل مطوّل إلى غاية نهيلة النّفَس.

بعدها ترفع اليدين وتقرأ الفاتحة، ثم الصلاة على النّبي، ويختم الورد بدعاء " سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين [1].

ب- الممارسات الثقافية للزوار

ترتبط الممارسات أساساً بالجانب الديني، فهي تجسيد خاص لعلاقة الإنسان بالله، وهي تأخذ صورة التحول من ممارسة تعبدية وروحية فردية إلى ظاهرة مجتمعية [2].

فالزائر وبمجرد دخوله باب الزاوية، يحضر نفسه للدخول في فضاء روحي مغاير عن ما هو موجود خارج أسوار الزاوية بما في ذلك المسجد، فقد لاحظنا لدى غالبية الزوار ذكر الله عند الدخول بالبسملة وبعد ذلك يتوجهون مباشرةً إلى مكان الاستقبال أما باب مسجد الزاوية الذي يوجد فيه كل من المقدم (سي أحمد: 52 سنة) والمتطوع (سي الهاشمي: 71 سنة) اللّذان يقومان بتوجيه الزائرين حسب حاجاتهم بعد طرحهما للسؤال الذي يتكرر مع كل زائر (... *باغي تزور ولا باغي تشوف الشيخ* ؟).

فتواجد الأفراد بحد ذاته لا يخلو من القيام بأفعال وبأقوال مأثورة ومخصوصة، إذ هو على حد تعبير **دوركايم** بالمجال الذي يتحول فيه المقدس إلى معاش [3].

([1]) - عن المقدّم: سي أحمد، في مقابلة بتاريخ: 2014/08/09.

([2])- رزازي محمد، (الأبعاد السوسيولوجية والرمزية للممارسة الصوفية بالجزائر)، مجلة المواقف، المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي معسكر، أفريل 2008، ص: 71.

([3])- بن عامر كريمة، (الطقس الديني والضبط الاجتماعي)، مجلة المواقف، المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي، معسكر، أفريل 2008 ص: 165.

فالطقوس الجماعية تساعد على إدماج الأفراد ضمن الجماعات باعتبارها قواعد سلوكية تنظم تعامل الفرد مع الأشياء الدينية والمقدسة، فهي تقوم بالتوفيق بين ما هو حسّي وروحي في إطار الضبط الاجتماعي، فبالرّغم من انتشار بعض الآراء التي تأخذ من الطقس على أنه مجرّد تراث وفولكلور إلاّ أنه في الواقع يتأكد من جدواه في الإبقاء على التلاحم والتضامن الاجتماعيين[1].

فالطقوس تختلف من فرد لآخر وكذا من فرد لجماعة، فهي أكبر معبّر عن التمثّلات الثقافية لمجتمع الزاوية، سواء من شيوخ وقيّمين بها أو زائرين لها.

وتتمحور غالبا في قيام الزائر بالوضوء إذا أراد دخول المسجد، ثم بالتسليم على المقدّم وتجاذب أطراف الحديث حول حاله وصحته وهذا طبعاً بالنسبة للرجال، أما النساء فتدخلن مباشرةً إلى المسجد باتجاه حجرة الدفن.

وما شدّ انتباهنا هو طلب الزائرين عن الماء والخبز، فالماء هو لبئر محفورة بجوار غرفة الأمانات المطلّة على الساحة، أما الخبز فمرّات يكون محضراً من طرف عائلة البوعبدلي، أي (خبز الدار) ومرّات يذهب المقدّم لشرائه من المخبزة فيوضع بالغرفة المذكورة كصدقة على من أراد الأكل منه.

وبالطبع قمنا بالشرب من ماء الزاوية العذب والبارد في إناء بشكل جماعي، حتى هنا الأمر عادي لكن السؤال عنه بهذه الصفة الملحّة يعكس قيمة الماء والخبز لدى الزوار حيث يقول (سي أحمد) "*هذا ماشي كيما الماء الآخر، هذا تاع الزاوية فيه بركة أولياء الله الصالحين ومن التربة الصالحة*..."

وبخصوص الخبز الذي يوضع كصدقة على الزائرين، فقد صادف وأن قدّمت لنا إحدى الزائرات (في الأربعينيات من العمر) الخبز المنزلي المحضر من طرفها على كل الجالسين في ساحة الزاوية وكان لنا نصيب منه.

([1]) - نفس المرجع، ص: 165.

كذلك من بين الطقوس المعمول بها، الصلاة في مسجد الزاوية بالنسبة للرجال، وفي هذا الصدد يقول لنا المبحوث (عبد الرحمن: 37 سنة) بأن صلاته وما يقرأ من قرآن هو في ميزان حسنات الولي الصالح أبو عبد الله. والدعاء هنا يكون بالتوسل إلى الله بالصالحين المدفونين بالزاوية

أما النساء فلا تصلّين في مسجد الزاوية، بل تقمن بصلاة ركعتين في حجرة الدفن في وضعية تجعل من القبور ورائهن (أي لا تكون القبور في القبلة)، وهذا لتجنب انكشاف النساء أثناء الصلاة مع الرجال، وأثناء صلاتهن تكون زيارة الرجال للأضرحة قصيرة جدّاً مع حرص المقدّم على ذلك.

أيضاً من بين الممارسات التي شدت انتباهنا أثناء تواجدنا بالزاوية هي الطلب على تراب الزاوية، وللعلم فإن التراب موجود فقط في ركن أين توجد شجرة صفصاف كبيرة، أما محيط الزاوية المتبقي فكله مبلط ومعبد بالإسفلت، وقد وجدنا (بوزناد: 55 سنة) جالساً بجوار الشجرة مع ابنه الصبي حيث يحفر بيديه ويداعب التراب بلطف.

وللتراب أهمية كبيرة خاصة لدى النساء العواجز اللواتي يأخذن كمية صغيرة منه حيث تلفّها في قطعة قماش أو منديل للاحتفاظ بها للتبرّك، وعندما سألنا المقدم (سي أحمد) عن مسألة التراب قال ضاحكاً "... *ياولدي هادو نوايا مساكين،يدوه للبركة*.. ." وقال أيضاً "...*كاين اللي يبغي يكون عنده تراب سيدي بوعبد الله في داره*.. .."، أي أخذ التراب من الزاوية والاحتفاظ به يفسَّر بنقل بركة الشيخ إلى المنزل، وبهذا نفهم ما كان يقصده المبحوث (هواري: 58 سنة) حين قال أن كل ما هو موجود له علاقة بالولي الصالح سيدي أبو عبد الله، والتراب جزئ من هذا الكل.

جـ - الزّيارة

يُقصد بالزيارة، القدوم إلى الزاوية لرؤية ناسها الأحياء منهم والأموات، بغرض قضاء حاجات غيبية كالصلاة والدعاء أو كإكرام الشيخ والمقدّم.

فيقول محدثنا (لخضر: 69 سنة) "... *غير تريّح فالزاوية راك فالفايدة*.. .."، فالجلوس حسبه أفضل من التواجد في الشارع أو المقهى، فالبعض

يأتي لمجرد الرّاحة والمساعدة في أشغال الزاوية مثل حالة (نجيب: 66 سنة) الذي يساعد في أشغال النظافة والصيانة.

وعن الزيارة يصرح لنا (عبد الرحمن: 25 سنة) قائلاً "...*أنزور بنية حسنة في الصالحين وين نطلب الله فيها*..."، ويقول آخر (هواري: 58 سنة) أنه جاءت به محبة الصالحين أين يقدر على تجديد إيمانه بالله، فالإيمان حسبه يتجدّد بلقاء الناس الصالحين الذين يخدمون الدين، حيث يقول: "... *هادو ناس سخّرهم ربي باش يخّدموا الدين*..."

وبغض النظر عن سبب الزيارة، فإنه في بعض الحالات عبّر لنا مبحوثينا عن قدومهم فقط للاشيء أي ليس لقضاء حاجة معينة، بل للجلوس فقط حيث يقول (بوزناد: 55 سنة) "...*اليوم جابني المكتوب، ماعبيتش بروحي حتى لقيت روحي مجمّع فالزاوية*.. ."

فالزيارة تصحبها إرادة ونية، وهي الكلمة التي يعبّر بها الكثير من الزوّار من خلال إبداء النيّة الحسنة بالقدوم، فيقول نفس المبحوث "...مع هادي الزاوية آه والو، الواحد يصفي نيّته.. . إنسان يليق يكون مدّين وفيه خوف الله..."، وهي العبارات التي كرّرها أكثر من مبحوث.

وبخصوص الزيارة دائماً، شدّ انتباهنا أحد المبحوثين بخصوص أوقات الزيارة، حيث قال لنا المبحوث (بن عودة: 42 سنة) بأنه يأتي للزاوية مع عائلته في بداية فصل الخريف، وقال أيضاً بلهجة من المزاح "... *العام بيان من خريفه*...".

فمن خلال هذا الكلام تتّضح لنا رمزية الارتباط القوي بين التصورات والتمثلات الثقافية للمجتمع الجزائري بالأرض وبالنشاط الفلاحي، فالقدوم مع بداية الخريف يُراد منه التّيمن لاستقبال موسم جيّد تماماً مثلما هو معروف لدى الفلاحين عندما يستبشرون خيراً بأولى أمطار فصل الخريف.

فمصطلح الزيارة يحمل أبعاداً مادية كذلك من خلال التّبرع بمبلغ مالي غير محدّد للمقدّم أو الشيخ، قصد الإكرام والتصدّق على الناس الصالحين في نظرهم.

فالكثير من الزائرين يأتون لزيارة الشيخ فقط للسؤال عن أحواله وعن صحّته، وطلب بعض النصائح في أمور خاصة، وفي بعض الأحيان بالبوح له بأسرار مهمّة لأن الشيخ يحفظها تماماً كأمين سر لهم.

أنّ الزاوية باعتبارها مكان ديني، فإنه لمن الطبيعي ارتباطها بالحالة النفسية للأفراد المتردّدين عليها فهي تشكل فضاءً لاحتواء مختلف حالات القلق واليأس والاضطراب التي تنتاب الإنسان جرّاء ضغوطات الحياة اليومية [1].

وقد ارتبطت تعابير مبحوثينا بمفهوم الرّاحة، وفي الحقيقة لقد لمسنا شيئاً منها أثناء تواجدنا بالزاوية، ففضاءها مليء بالهدوء والسكينة، لا يكسرها سوى أصوات سيارات الجماعات المواقفة عليها من حين لآخر، فيقول لنا (هواري: 58 سنة) عن زيارته"... نجي هنا باش نرتاح.. . نرتاح وين يتكروا الله.. ."، وهنا يعبّر لنا عن ارتياحه في الأماكن الدينية، التي يذكر فيها الله.

وفي حالة (لخضر: 69 سنة) حيث ضرّح أنه كان يعمل بشركة سوناطراك في قسم الإنتاج، ومنذ أن أُحيل على التقاعد بحوالي 8 سنوات لجأ للزاوية للبقاء والراحة فيه.

أنّ تعدّد التعابير عن "الرّاحة" لدى مبحوثينا، يوحي ببحثهم المتواصل عن الاطمئنان والهدوء الروحي،تماماً مثلما عبّر لنا الشيخ عياض أنّ الزاوية أصبحت ملجأً للناس الهاربين من صخب الدنيا ومشاكلها.

فالرّاحة المنشودة صارت هدف يبحث عنه، إذ لم يجد مبحوثينا مكاناً أفضل من الزاوية، وهذا راجع إلى المكانة المرموقة لشيخها، وكذا لطبيعة المكان، ففي الزاوية ليس هناك قيود مفروضة على الزائرين، إذ لا توجد نواهي كثيرة، فليس على الزائر التقيّد بشروط لازمة، كما أنه ليس بالضرورة أن يقدّم أشياء معيّنة وهو ليس مجبراً على تقديمها.

ففضاء الزاوية لا تعتليه شروط أو قيود خاصة مثلما هو الحال في مؤسسة رسمية مثل (بلدية، إدارة، مستشفى، فندق، أو مدرسة، مسجد...) وذلك بإعطاء حرية الحركة والتنقل لزائريها داخل الزاوية، إضافةً إلى عدم

([1]) - بن عامر كريمة، مرجع سابق، ص: 159.

التزامها بالاستقبال في وقت محدّد، فباب الزاوية مفتوح من الفجر إلى غاية ما بعد صلاة العشاء.

ففي مثل هذه الأماكن يجد الزائر جزئ من الحريّة، على الأقل للتخلص من ضغوطات الحياة اليومية وقد صادفنا من بين الزائرين شاب كفيف البصر (بوزناد: 36 سنة) قدم إلى الزاوية للجلوس في الزاوية بمسجدها وساحتها لمدّة تفوق الساعة، حيث قال لنا "...*كي نجي هنا ينشرح صدري...*"

وقال أيضاً، ".. *أنا أعمى ومين مانشوفش بعيني ايجيني الحال*.. . نجي باش نرتاح ونسمع كلام الناس الصالحين...".

أي بما أنه شخص كفيف، تنتابه حالات من الغمّ والقلق والتوتّر، ولم يجد بوزناد إلا القدوم برفقة ابن أخيه للزاوية، فتساءلنا عن معنى ومدلول الراحة لدى مبحوثينا (إن كانت نفسية أو جسدية) فقد تبيّن أنها في هذه الحالات أنها تتعدّاها لترقى إلى الرّاحة الروحية « spirituel » بالدرجة الأولى، وهنا يذكر لنا الباحث **سعيد سنوسي** أن الزاوية تشكل حلاّ أو مخرجاً « issue » للرّغبين بالبحث عن الهدوء والتوازن الاجتماعي والرّوحي [1].

شكلت التعابير والتصريحات التي حضينا بها سوآءا من القائمين على شؤون الزاوية البوعبدلية أو زوارها المرتبطين بها، موضوعا هاماً للبحث في مجال الانثروبولوجيا الثقافية واللغوية، حيث تبين من خلال هذه الدراسة تحكم الجانب الرمزي ذو الصفة الغيبية في تعبيرات مبحوثينا، الذين كانوا يؤكدون في كل مرة من خلال حديثنا معهم على تعلقهم الشديد واحترامهم للنزعة الصوفية التي تميز الزوايا عامةً ، حيث تشكل حسب لغتهم المظهر الصافي والأصيل وسط هذا العالم المادي الرهيب، كما لمسنا بوجودنا داخل الزاوية وجود سجل لغوي خاص أساسه التصوف والإيمان بالغيب الإلاهي كونه يشكل قوة رمزية كبيرة تنعكس على تمثلات وممارسات مجتمع الزاوية ككل.

([1]) – SENOUCI S.،(un faquir enthousiaste accueillant la lumière) ،op.cit. ،p: 167.

المراجع

1 - BERQUE A.، 1986، (*écrits sur l'Algérie*)، Paris، Edisud.

2 - BERQUE J.، 2001،(*histoire et Anthropologie du Maghreb*)، Opéra Minora II، Paris
Edi:BOUCHENEN

3 - BLOCH M.، 2013، (*l'Anthropologie et le défi cognitif*)، Paris، Odile Jacob.

4 - BOUBRIK R.، 1999، (*Saints et société en Islam*)، Paris، Edi.،CNRS.

5 - De NEVEU E.، 184،6 (*les khouans: ordre religieux chez les musulmans d'Algérie*)، Paris، GUYOT، 2ème Edition.

6 - DERMENGHEM E.، 1954، (*le culte des saints dans l'islam maghrébin*)، Paris، GALLIMARD.

7 -FAUCON N.، 1889، (*le livre d'or de l'Algérie*)، tome 1، Paris، CHALLAMEL.

8 - GEOFFROY E.، 2009، (*l'Islam sera spirituel ou ne sera plus*)، Paris، Edi. Du Seuil.

9 - GUERID Djamel، (coo. et pré.)، 2012، (*savoir et société en Algérie*)، CREAD، Alger.

10 -RINN L.، 1884، (*marabouts et khouanes*)، Alger، Adolphe Jourdan، (libraire-éditeur).

11- SENOUCI Saïd، 2009، (*un faquîr enthousiaste accueillant la lumière*)، Dar el Gharb،Oran.

12 -TURIN Y.، 1971،(*affrontements culturels dans l'Algérie coloniale 1830-1880*)،Paris، MASPERO.

1- بوحديبة عبد الوهاب، 1992، (لأفهم فصول عن المجتمع والدين)، الدار التونسية للنشر والتوزيع.1

2 - طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، 2010، (مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة و
المجتمع)، ترجمة: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى.

3- خليل أحمد خليل، 1984، (المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع)، بيروت، دار الحداثة، الطبعة الأولى.

4- مؤيد العقبي صلاح،2009، (الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر: تاريخها ونشاطها)، دار البصائر.
5- بودواية بلحيا، 2009، (التصوف في بلاد المغرب العربي)، دار القدس العربي، الطبعة الأولى، وهران..
6- عبد القادر بوعرفة الهلالي، 2004، (أعلام الفكر والتصوف بالجزائر)، الجزء1، وهران، دار الغرب.
7- مصطفى راجعي، 2014، (التديّن وجودة الحكامة في الجزائر)، دار حامد، عمّان، الأردن.
8- نايف معروف، (الإنسان والعقل)، سبيل الرشاد، بيروت، الطبعة الأولى.
9- الحسيني الحسيني معدّى، 2013، (موسوعة الصوفية)، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة.

المقالات

1- رزازي محمد، (الأبعاد السوسيولوجية والرمزية للممارسة الصوفية بالجزائر)، مجلة المواقف، المركز الجامعي مصطفى
اسطنبولي، معسكر، أفريل 2008.
2- بن عامر كريمة، (الطقس الديني والضبط الاجتماعي)، مجلة المواقف، المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي، معسكر،
أفريل 2008.
3- غرس الله عبد الحفيظ، (الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية)، مجلة المواقف، معسكر، عدد1، 2007.